محاضرة مُفرَّغة بِعنوان:

الأَخْلاَقُ الفَاضِلَة

لفضيلة الشيخ:

عبد الرزَّاق بن عبد المحسن العبَّاد

-حفظه الله-

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمِين، وَأشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ اللهُ وَحْدهُ لا شَرِيكَ لهُ، وَأشْهَدُ أنَّ محمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأصْحَابِهِ أجْمَعِين.

أمَّا بعدُ:

فأولاً: أسأل الله –عزَّ وجلَّ– لنا جميعًا التوفيق والسداد، والعون علىٰ كلِّ خير، وأن يَمُنَّ علينا جميعًا بالعلم النافع، والعمل الصالح، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا هو.

والكلمة في هٰذا اللقاء ستكون عن (**الأخلاق**)؛ وقد صحَّ في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**)) أو ((**صَالِحَ الأَخْلاَقِ**))[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: ((**أقربكم مني منزلة أحاسنكُم أخلاقًا**))[2]، وجاء عنه صلوات الله وسلامه عليه في أحاديث عديدة،الحثُّ على الأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة، وبيان ما يترتب على الخلق من الثواب العظيم، والأجر الجزيل؛ بل سُئل عليه الصلاة والسلام عن أعظم ما يكون به دخول الجنة؛ فقال: ((**تَقْوى اَللَّهِ، وَحُسْنُ اَلْخُلُقِ**))[3]؛ فلهٰذا ينبغي علىٰ كلِّ مسلم أن يرعى الأخلاق رعايةً طيبة، وأن يُعنىٰ **ا عناية جيدة؛ لأا عنوان سعادته وفلاحه** في دنياه وأخراه.

والحديث عن الأخلاق حديثٌ واسع؛ لٰكن سأقصُر الحديث في هٰذا الباب على أمورٍ أربعة؛ هي تعتبر **للأخلاق بمثابة الأركان، الأخلاق الإسلامية تقوم على أربعة أركان، من**

[1] رواه البخاري في " **الأدب المفرد** " رقم (273)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 45.

[2] لم أقف على هٰذا اللفظ؛ وإنما **وقفت على قوله عليه الصلاة والسلام**: ((**أقربُكم منِّي مجْلسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أحْسَنُكُمْ خُلُقًا**)). حسنه الألباني في صحيح الجامع: 1176.

[3] رواه البخارى فى الأدب المفرد (110/1 ، رقم 294)، وحسنه الألباني –رحمهما الله-.

اعتنى ا كان -بإذن الله -تبارك وتعالى- من أهل الأخلاق، ومن ضيعها، أو ضيع منها شيئًا؛ ضاع منه الخلق بحسب ما أضاع من هذه الأركان.

وهذه الأركان الأربعة للأخلاق اجتمعت في أربعة أحاديث؛ كلّ حديث منها دلّ على ركنٍ من أركان الأخلاق، يقول أبي زيد القيرواني الإمام المعروف المشهور بأبي مالك الصغير -رحمه الله-، يقول: "أحاديث الأخلاق تجتمع في أربعة أحاديث:

- قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))[4].
- وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيْهِ))[5].
- وقوله صلى الله عليه وسلم لمن طلب منه الوصية: ((لَا تَغْضَبْ))[6].
- وقوله صلى الله عليه وسلم: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))[7]."

فهذه الأحاديث الأربعة، وكلها من أحاديث الأربعين للإمام النووي -رحمه الله تعالى- جمعت الأخلاق والآداب، وجميع أحاديث الأخلاق المروية عن النبي عليه الصلاة والسلام راجعة إلى هذه الأحاديث الأربعة، وهذا يفيدنا أن من وفّق لفهم هذه الأحاديث وتطبيقها؛ فإنه يكون قد اجتمعت فيه أركان الأخلاق وأعمدته.

وبناء على ما تقدّم، ولا سيما تقرير الإمام أبي زيد -رحمه الله- أقول:

الأخلاق تقوم على أركان أربعة:

---

[4] رواه البخارى (2240/5 ، رقم 5672) ، ومسلم (1091/2 رقم 1468).

[5] أخرجه الترمذى (558/4 رقم 2317)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: 5911.

[6] أخرجه : البخاري 35/8 (6116) .

[7] رواه البخارى (14/1 ، رقم 13) ، ومسلم (67/1 ، رقم 45).

❶ الركن الأول:

صيانة اللسان؛ ودليله قوله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))[8]. هذا الركن الأول، ومن لم يصن لسانه، لن يكون من أهل الأخلاق.

فمن الأسس العظيمة والدعائم المتينة التي تقوم عليها الأخلاق: صيانة اللسان؛ ومعنى صيانة اللسان؛ أي: ضبطه، وحبسه من الكلام إلا ما كان فيه فائدة.

فقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)): فيه دعوة للتفكر في الكلام قبل الكلام؛ لأن الكلمة قبل أن تخرج تملكها، وإذا خرجت ملكت؛ ولهذا من الجميل بالإنسان أن يتفكر في الكلام قبل أن يتكلم، وإذا تفكرت في كلامك قبل أن تتكلم لن يخرج عن ثلاث كلمات، أو ثلاثة أمور:

– إما أن يتبين لك أنه خير، خيرٌ بيّن واضح؛ فتكلم به ولا حرج.

– وإما أن يتبين لك أنه شر، شرٌ بيّن، إما غيبة أو كذب أو سخرية أو نميمة أو غير ذلك من الشر البيّن؛ فهنا تمتنع منه، ولا تُخرج في هذا الباب ولا كلمة واحدة.

– والأمر الثالث: أن يكون مشتبهًا عليك، لا تدري هل الكلام الذي تقوله خير أو شر، ترددت، لم يتبين لك، اشتبه عليك؛ فهذه الحالة أيضًا تمتنع من الكلام؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: ((فَمَنِ اتَّقَى اَلشُّبُهَاتِ, فَقَدِ اِسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ))[9]، ولقوله عليه الصلاة والسلام: ((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ))[10].

---

[8] سبق تخريجه في هامش رقم: 4.

[9] رواه البخاري (28/1 ، رقم 52) ، ومسلم (1219/3 ، رقم 1599).

[10] رواه الترمذي (668/4 ، رقم 2518)، والنسائي (327/8 ، رقم 5711)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (3377، 3378).

فهذا أساس لابدّ منه في باب الأخلاق والآداب: أن يصون الإنسان لسانه، وأن يحفظ كلامه، فلا يتكلم إلا بخير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[11].

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ –أو عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ– فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))[12].

فإذن هذا الأساس الأول للأخلاق والآداب أن يصون المسلم لسانه، وكما قدمت من لا يصون لسانه لن يكون من أهل الأدب، ولن يكون من أهل الخلق؛ فمن أساسيات الأخلاق وأركانه التي عليها يقوم: صيانة اللسان وحفظه.

❷ الركن الثاني من أركان الأخلاق:

البعد عن الفضول وما لا يعني، وأن لا يقحم المرء نفسه فيما لا يعنيه. والإنسان الفضولي لن يكون مؤدبًا، ولن يكون خلوقًا؛ لأن فضوله وإقحامه لنفسه فيما لا يعنيه يخرجه عن حيز الأدب وعن نطاقه، بينما إذا كان بعيدًا عن الفضول، بعيدًا عن الدخول فيما لا يعنيه؛ فهذا من سمات الأدب؛ بل من أعمدة الأدب، ودليل هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيْهِ))[13]، ومعنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم: ((تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيْهِ))؛ أي: بضابط الشرع، لا بضابط الهوىٰ، وهذا أمر قد يُغفل عنه، بضابط الشرع لا بضابط الهوىٰ.

لأن بعض الناس قد يوظّف هذا الحديث في غير بابه؛ مثل أن يؤمر بخير أو ينهىٰ عن منكر؛ فيقول للآمر الناهي: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"؛ هذا من سوء فهمه

---

[11] [الأحزاب: 70].

[12] رواه الترمذي (11/5 ، رقم 2616)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: 5136.

[13] سبق تخريجه، انظر هامش رقم: 5.

للحديث؛ لأن مما يعني المسلم بضابط الشرع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ هذا مما يعني المسلم ليس مما لا يعنيه؛ لأنه أُمر بذلك في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فمما يعني المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ فتنزيل الحديث على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تنزيلٌ له في غير بابه؛ لأن المراد بقوله: ((تَرْكُهُ مَالَا يَعْنِيهِ))؛ أي: بضابط الشرع.

وابن رجب -رحمه الله- وضّح هذه المسألة توضيحًا جيدًا في شرحه لهذا الحديث في كتابه: (جامع العلوم والحكم).

إذن الركن الثاني من الأركان الأخلاق والآداب: البعد عن الفضول، والبعد عن ما لا يعني؛ فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول السماع؛ كلّ هذه إن وقع الإنسان فيها أخرجته عن حيز الأخلاق والآداب.

❸ **الركن الثالث من أركان الآداب والأخلاق:**

عدم الانسياق مع انفعالات النفس، وبخاصةٍ الغضب، عندما ينفعل الإنسان، ويغضب عليه أن لا يباشر وقت غضبه أيّ قولٍ أو أيّ فعل؛ لأن أي قولٍ يباشره وقت الغضب، وأي فعل يباشره وقت الغضب؛ سيخرج به -في الغالب- عن نطاق الخلق والأدب.

وقد قيل في ذمّ الغضب وتقبيحه؛ قالوا: "الغضب أوله جنون، وآخره ندم"؛ لأن الذي يتصرف وقت غضبه بقولٍ أو بفعل يتصرف بغير انضباط؛ ولهذا على الإنسان أن لا ينساق مع انفعالات النفس، إذا كان منفعلًا يجلس، قال عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا غَضِبَ

أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ ذَهَبَ الْغَضَبُ عَنْهُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ))[14]، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ))[15].

قوله: ((فَلْيَسْكُتْ)): امتناع من الكلام وقت الغضب، ((فَلْيَجْلِسْ)) امتناع من الفعل وقت الغضب؛ فهذان الأمران الكلام والفعل وقت الغضب مطلوبان من المسلم، وإذا كان الإنسان وقت انفعاله يباشر قولاً أو يباشر فعلاً؛ فإن هذا -ولا شك- سيوقعه في أمور وأفعال تتنافى مع الأدب، وتتنافى مع الخلق.

فيحتاج من أراد لنفسه أن يكون خلوقًا أن لا ينساق مع انفعالات النفس، وهذا دليله؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لَا تَغْضَبْ))[16]، قال: ((أَوْصِنِي؛ قَالَ: لَا تَغْضَبْ)) كررها عليه صلوات الله وسلامه عليه، وقد جاء في بعض الروايات: أن الصحابي قال: "فتأملت ذلك فوجدت أن الغضب جماع الشر".

إذا كان الإنسان ينساق مع انفعالاته ومع غضبه؛ هذا يفضي به إلى الوقوع في شرور كبيرة وأعمال عديدة لا يحمد عاقبتها.

❹ **الأمر الرابع من أركان الأدب والأخلاق:**

سلامة الصدر؛ بأن لا يكون في صدر الإنسان غل أو حقد أو ضغائن أو سخائم أو نحو ذلك من أسقام القلوب وأمراضها، ربنا ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾[17].

---

[14] أخرجه أحمد (152/5 ، رقم 21386) ، وأبو داود (249/4 ، رقم 4782)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: 694.

[15] أخرجه أحمد (239/1 ، رقم 2136)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: 693.

[16] سبق تخريجه، انظر هامش رقم: 6.

[17] [الحشر: 10].

فسلامة الصدر أمر مطلوب، والذي في صدره دواخل سيئة، وبواطن فاسدة؛ لا يمكن أن يكون من أهل الأخلاق؛ لأن فساد الباطن وانحرافه ينعكس على ظاهره، ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[18].

ويدل لمكانة هذا في باب الأخلاق؛ قوله عليه الصلاة والسلام: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))[19].

فهذا الحديث عمدة في باب الأخلاق؛ ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، وإذا بلغ الإنسان مبلغ تحقيق هذا الحديث، وضبط هذا الحديث، إذا بلغ مبلغ ضبط هذا الحديث فيصون قلبه وينقي سريرته من الدواخل السيئة والبطانات الفاسدة؛ فإنه -بإذن الله -تبارك وتعالى- يتحقق فيه الخلق في أبى صوره، وأجمل حلله؛ قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)).

الشاهد أن هذه أركان الأربعة تقوم عليها الأخلاق، وهي مستفادة من كلام الإمام ابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله-، وكلامه نقله الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- في كتابه: (جامع العلوم والحكم).

فأوصي نفسي وإخواني جميعًا والأخوات المستمعات -بارك الله في الجميع- أن نُعنى بهذه الأحاديث، وأن نُعنى بفهمها، وتحقيقها وتطبيقها.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يهدينا جميعًا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها

[18] رواه البخاري (28/1 ، رقم 52) ، ومسلم (1219/3 ، رقم 1599).
[19] سبق تخريجه، انظر هامش رقم: 7.

إلا هو، وأن يعيذنا من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء، وأن يصلح لنا شأننا كله إنه تبارك وتعالى سميع مجيب قريب.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.